

بدو مصر فى ثورة ١٩١٩م

أحمد الشربيني^(١)

تميزت ثورة ١٩١٩م فى مصر عن غيرها من الثورات التى اندلعت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بالمنطقة العربية، فى أنها كانت ثورة شعبية غلب عليها الطابع السلمى. وقد انطلقت هذه الثورة يوم ٩ مارس وعمت كل أنحاء مصر بعد أن أُلقت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر القبض على بعض الساسة المصريين - وفى مقدمتهم سعد زغلول باشا - وشرعت فى نفيهم إلى خارج البلاد، فى محاولة للسيطرة على ما أسموه بالتهيج السياسى بالبلاد، المصاحب للاستعدادات التى كانت تجرى بلندن وباريس للإعداد لتسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى. وإذا كان الطلاب لهم السبق فى الخروج إلى الشارع المصرى، وإلهاب حماس الجماهير بشكل دفعهم إلى النزول تباعا والمشاركة فى الثورة، فقد شارك فى الثورة كل فئات وأطياف المجتمع المصرى، والذين تنوعت مشاركتهم، ما بين التظاهر والإضراب عن العمل، والاعتصام بمقار العمل.

وإذا كانت المدن المصرية إبان الثورة قد شهدت زخما ثوريا غير مسبوق فى مصر الحديثة، فإن انخراط جماعات أخرى فى الثورة من غير ساكنيها، نقل الثورة من القاهرة والمدن إلى أطراف المجتمع المصرى، بشكل أدى إلى اتساع مجالها، إلى حد جعل مهمة القوات البريطانية فى السيطرة عليها صعبة ومعقدة، حتى إن أحد كبار المسئولين البريطانيين - السير م. تشتيهام Sir M. Cheetham, S القائم بالأعمال البريطانية فى مصر بعد رحيل السير ريجنلد وينجت Sir R. Wingate - رأى بعد اندلاع الثورة بأقل من ثلاثة أسابيع، بأن «نوعا من التفاهم فى طبيعة الثورة الحالية أمر محتوم إن عاجلا أم عاجلا».

وقد أثارت مشاركة الفلاحين والبدو غير المتوقعة فى ثورة ١٩١٩م انتباه المراقبين للشأن المصرى عندئذ، وبخاصة المسئولين البريطانيين، الذين هالهم تلك المشاركة التى لم تجعل الثورة تنتقل من القاهرة وحواضر الأقاليم إلى الأطراف فحسب، بل جعلت الوضع أثناء الثورة خارج المدن أكثر خطورة على الوجود البريطانى من المناطق الحضرية بما فيها

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة القاهرة، كلية الآداب - جامعة الكويت.

العاصمة، بعد أن أجهدهم تعقب الثوار من الفلاحين والبدو، ممن انتشروا في مناطق مفتوحة، تتسم بالعمق الاستراتيجي، وبخاصة البدو الذين وجدوا صعوبة في ملاحقتهم في الصحراء. فإذا كانوا قد نكلوا بقوى ثائرة كثيرة، بفرض الحصار عليها، وتفتيش منازلها في غسق الليل، بل وإحراقها بمحتوياتها، فإنهم وجدوا مشاكل كثيرة في ملاحقة البدو، لوقف نشاطهم في الثورة.

ولعل دور البدو المزعج والمكلف لسلطات الاحتلال البريطاني بمصر في ثورة ١٩١٩م كان وراء اهتمام رجال الاحتلال بتشويه هذا الدور، ومحاصرته، وذلك بالعمل على عزل البدو وإخراجهم من الثورة على وجه السرعة، وذلك من خلال نشر بيانات ونداءات بالصحف لتوتير العلاقة بين البدو وغيرهم من الجماعات المصرية المستقرة - والتي كانت نظرة كل منهما للأخر ما تزال بحاجة إلى بعض التصحيح - وإفقاد البدو الأرضية أو الحضانة التي تسهل لهم الانخراط في عمليات مقاومة سلطات الاحتلال، لاسيما بعد أن اهتموا بنقل ساحة مشاركتهم في الثورة إلى المدن والقرى الأقرب إلى مواطنهم.

وتنوعت الأساليب التي اتخذها رجال الاحتلال في مصر لعزل البدو في الثورة، منها إثارة الشك والريبة في نفوس الفلاحين وأصحاب المصالح الزراعية من تحركاتهم، عندما راحت بلاغاتهم التي كانت تنشر بالصحف اليومية، تصور تحركات البدو في الثورة على أنها تحركات رعايا ومشاغبيين... حتى إن أحد هذه البلاغات اعتبر أن ثوار البحيرة ما هم إلا مجموعات من «المشاغبين الذين كان معظمهم من البدو».

واعتبرت بلاغات أخرى لبعض المسؤولين البريطانيين من شاركوا من البدو في ثورة ١٩١٩م أصحاب عصابات... ففي ٢٨ مارس ١٩١٩م نشر بلاغ رسمي عن سلطات الاحتلال في مصر ذهب إلى أن «العصابات المسلحة التي هجمت على أسبوط والتي كانت موزعة على طول النيل شمالا إلى ديروط كانت مؤلفة من البدو، وغيرهم من سكان المراكز البعيدة، تعززهم عناصر من الخارجين على القانون من القاطنين في هذا الجزء من وادي النيل». ونعتت بلاغات أخرى لمسؤولين بريطانيين، من كانوا يشاركون في الثورة من البدو، بأنهم جماعات تتحرك بدافع السلب والنهب والسرقة، فذهب بلاغ إلى أن البدو في البحيرة، ومركز الوسطى ببني سويف «انتهزوا فرصة الحالة.. الثورية... ليدخلوا المناطق المزروعة للسرقة والنهب».

وفى رسالة من القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهم» إلى اللورد كيرزون Earl Curzon فى ١٩ مارس ١٩١٩م ذهب إلى «أن هجمات البدو ترتب عليها سلب الدوائر الحكومية ومحطات السك الحديدية، بعد أن درجوا على الإغارة على الدوائر الحكومية المدنية فى الأرياف بأعداد كبيرة والقيام بأعمال السلب والنهب وإتلاف المحاصيل فى مختلف المناطق، بشكل أدى إلى شيوع الفوضى، مع عجز البوليس عن مواجهة الثوار». هذا فى الوقت الذى اتجهت فيه بلاغات أخرى لتصوير البدو فى ثورة ١٩١٩م، على أنهم مرتزقة، تستخدمهم الجماعة الوطنية للضغط على أصحاب المصالح حتى يقبلوا بالانخراط فى الثورة، أو إطلاق البدو عليهم، حتى إن القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهم» أرسل إلى اللورد كيرزون «أن الوطنيين كانوا يهددون رؤساء الإدارات المحلية ورجال البوليس، ليفاضلوا بين الانضمام إلى الحركة الوطنية، أو يأتون إليهم بالبدو لسلب المنطقة، وإشعال النار فى المباني الحكومية، و نفذوا تهديدهم فى عدد كبير من الحالات، وكانت أجور هؤلاء البدو تدفع من قبل اللجنة الوطنية المركزية»، وأن الأمير عمر طوسون قام بدور مهم فى تنظيم العمليات التى يقوم بها البدو، بعد أن لوحظ أن مشايخ البدو كانوا يزورونه بصفة مستمرة لعدة أسابيع فى فندق شبرد بالقاهرة.

لكن الشواهد التاريخية التى تم فرزها حتى من بين رسائل وبلاغات المسؤولين البريطانيين أنفسهم، تشير إلى أن تحرك البدو فى ثورة ١٩١٩م كان تحركا محسوبا، وينم عن إدراك، ووعى بالمسألة المصرية، وأبعادها، لاسيما بعد أن جاء هذا التحرك متناغما مع تحركات باقى القوى المصرية المشاركة بالثورة.

فهناك بلاغات لمسؤولين بريطانيين تشير إلى أن البدو فى بعض المناطق بمصر كانوا يعملون لدفع غيرهم من البدو الذين ترددوا بشأن المشاركة فى الثورة، حتى ينخرطوا معهم فيها، فأشارت رسالة من اللورد اللنبى Sir E. Allenby إلى كيرزون لقيام بدو البحيرة بمحاولات لإقناع بدو الساحل بين الإسكندرية والسلوم، للانخراط فى أحداث الثورة.

وفى الوقت الذى كان يتحرك فيه بعض البدو لإشراك ذويهم فى الثورة، لتوسيع دائرتها بشكل يربك حسابات سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، وبخاصة فى المناطق التى تمثل ظهيرا لأهم المدن والسواحل المصرية، أخذت قطاعات من البدو مواقف معادية للثورة، حتى إن بعض هذه القطاعات لم يرفض الاستجابة لدعوات غيرهم من البدو

للمشاركة فى الثورة فحسب، بل راح يتعاون مع سلطات الاحتلال لحماية خطوط السكك الحديدية، فالبدو الذين كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة بين الإسكندرية والسلوم لم يرفضوا دعوات بدو البحيرة للانخراط فى الثورة فحسب، بل قام كثير منهم بحراسة محطة سكة حديد مريوط، كذلك قام العرب القاطنون بين أسوان والأقصر بتقديم المساعدة للأجهزة الإدارية فى مصر أثناء الثورة، حتى إنه تم الاستعانة بعناصر منهم فى حماية السكة الحديد فى جنوب الأقصر، والذين كانوا من قبيلة البشارية التى كانت دائما موالية للسلطة، واستخدم منها أغلب قوات الهجانة.

وترجع قطاعات من البدو عن المشاركة بالثورة، والقبول بالتعاون مع الإدارة، لحماية خطوط السكك الحديدية والمنشآت العامة، يجعل الاتهامات التى كالهيا رجال الاحتلال للبدو الذين شاركوا فى الثورة فى غير محلها، لأنهم لو كانوا يشاركون فى الثورة كمرتزقة، أو بهدف السلب والنهب لربما انساقوا جميعا خلف هذه الأهداف، وما وجدنا قطاعات من البدو ترفض الانخراط فى الثورة.

ومما جعل نشاط البدو فى ثورة ١٩١٩م أبعد ما يكون عن أعمال السلب والنهب، إن تحركاتهم ارتبطت بتحركات الجماعة المصرية، وبخاصة الفلاحين، لاسيما بعد أن نقلوا نشاطهم الثورى إلى المناطق ذات التأثير فى أداء سلطات الاحتلال، والتى تجاوزت القرى التى تقع على أطراف الصحراء إلى مدن الأقاليم الأقرب إلى مواطنهم، بمديريات الفيوم، وبنى سويف، وجرجا، وقنا، وأسوان، وأسيوط، كذلك امتدت تحركات البدو فى ثورة ١٩١٩م إلى البحيرة، والإسكندرية، والمنوفية، والشرقية، والدقهلية.

وفى تلك المناطق شكل البدو مع الأهالى وكافة القوى الاجتماعية المصرية وبخاصة الفلاحين، جبهة واحدة للقيام بأعمال للضغط على سلطات الاحتلال، وإرباك حساباتها فى مصر. فقد أشارت بلاغات المسئولين البريطانيين أثناء الثورة أن «الهجمات التى تعرضت لها أسيوط وتوابعها قام بها البدو وغيرهم من سكان المراكز البعيدة، تعززهم العناصر التى لا تطيع قانونا». وأن «الهجمات على مديريات أقصى جنوب مصر من جرجا وقنا وأسوان، قام بها البدو وعناصر عادية من المصريين»، كما «أن الهجمات التى استهدفت مناطق بشمال الشرقية والدقهلية والغربية وغرب البحيرة قام بها الرعاع من الفلاحين والبدو» وفى «الفيوم تسبب رجال البدو وبعض السكان فى إحداث أضرار بالغة فى عاصمة الإقليم والمدن

والمراكز المجاورة لها». كما كان المهاجمون «لمركز الوسطى - بينى سويف - والقادمون من الفيوم والذين قدر عددهم بسبعة آلاف رجل كانوا من السكان والبدو».

وظالما كان البدو جزءا من الحراك الثورى الذى شهدته الساحة المصرية فى ١٩١٩م، فقد استهدفوا فى تحركاتهم إبان الثورة ما استهدفه غيرهم من المصريين خارج القاهرة، حيث استهدفوا الجسور ممثلة فى الطرق وخطوط السكك الحديدية ومحطاتها، ومراكز البوليس، والدواوين الإدارية، لتعطيل دولاى العمل، والحيل بين قوات الاحتلال والوصول إلى المناطق الثائرة، بعد أن أصبحت الجسور لا تمثل لهم إلا وسيلة تستخدمها سلطات الاحتلال، لقمعهم، وسرقة فائض إنتاجهم.

لهذا كانت الطرق ووسائل النقل والمواصلات بما فيها خطوط السكك الحديدية، والقطارات هدفا لتحركات البدو فى ثورة ١٩١٩م، لعزل القاهرة باعتبارها العاصمة عن جنوب مصر وشمالها، وقطع الإمدادات المختلفة عنها. وإضعاف قدرة سلطات الاحتلال فى السيطرة على الثورة، بشل يدها فى نقل قواتها خارج القاهرة والإسكندرية.

لهذا هاجم البدو القطارات على خط سكك حديد القاهرة - أسوان، وتساوى فى ذلك القطارات التى كانت تتحرك فى الاتجاهين، ففى ١٨ مارس ١٩١٩م هاجموا قطارا كان قادما من الأقصر إلى القاهرة فى ديروط ودير مواس، كان يحمل بعض الضباط البريطانيين، «كما هاجموا فى الرقة القطار السريع القادم من القاهرة إلى أسوان ونهبت به عربة البريد، وأمتعة ركابه من الأوربيين، مما اضطره للعودة إلى القاهرة».

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه اعتداءات البدو على القطارات، كانوا يحطمون خطوط السكك الحديدية، حيث قاموا باقتلاع خطوط السكك الحديدية، فى أنحاء مديرية الفيوم حتى الوسطى بمديرية بنى سويف، وقطعوا خط السكك الحديدية بين الرقة وبنى سويف.

ولم يتوقف إتلاف خطوط السكك الحديدية على الفيوم والمناطق الجنوبية من مصر بل امتد إلى البحيرة، والمنوفية، والدقهلية. ففى «البحيرة قامت أعداد كبيرة من البدو الثائرين، بالهجوم على وسائل المواصلات فى القرى الكبيرة بالمنطقة»، وفى المنوفية «وقعت حوادث تخريب للسكة الحديدية... بعد أن بدأ البدو على حدودها يتفرقون... مجموعات كبيرة وشنوا هجمات على وسائل المواصلات فى القرى الكبيرة».

ولم تسلم مبانى محطات السكك الحديدية، من اعتداءات البدو، حتى إنها تعرضت للنهب والتدمير، بشكل أدى إلى تعطيل حركة القطارات.

وبلغ اهتمام البدو بتعطيل وسائل النقل والمواصلات أنهم لم يتلفوا خطوط السكك الحديدية الرئيسية فحسب، بل أتلفوا الفروع الجديدة فى المراكز البعيدة، ومعظم الطرق الزراعية، حتى أصبحت غير صالحة لنقل المحاصيل الزراعية، وتحتاج إلى وقت طويل لإصلاحها. ولما كان تعطل وسائل النقل والمواصلات أثناء الثورة، يزعج سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، فقد اهتمت بالعمل على إعادتها وحمايتها على وجه السرعة بأى ثمن، حتى إنهم استخدموا سلاح الهجانة، والبدو فى بعض المناطق لحمايتها من الاعتداء عليها. لاسيما بعد أن اهتم البدو بمعاودة تعطيل خطوط السكك الحديدية التى كان يتم إصلاحها. حيث أشار القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهايم» فى رسالة له إلى كيرزون فى ١٩ مارس ١٩١٩م إلى أن الجنود المصريين فى جنوب القاهرة قاموا بالمساعدة فى إصلاح خط السكك الحديدية المتجه إلى منطقة الوسطى، ولكن التقارير التى أعدها سلاح الطيران تشير إلى دمار جديد قام به البدو بصورة دائمة فى القرى.

وقد ربطت سلطات الاحتلال بين عودة الحركة إلى طبيعتها على خطوط السكك الحديدية ببعض المناطق بتوقف البدو عن مهاجمتها، حيث أشار بلاغ رسمى صادر عن سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر فى ٢٥ مارس إلى «عودة المواصلات بالسكة الحديدية بين الوسطى والفيوم بعد أن ارتدع البدو، بسبب العقاب الصارم الذى لحقهم يوم ١٩ مارس فى مدينة الفيوم».

وإلى جانب استهداف البدو فى ثورة ١٩١٩م لخطوط السكك الحديدية ومحطاتها وغيرها من الطرق الزراعية، فقد استهدفوا مراكز البوليس، والدوائر الحكومية الأخرى، بما فيها المحاكم لتعطيل جلساتها، ولاسيما بالمراكز النائية، حتى إنهم أجبروا من كانوا يعملون بها، على تسليم أسلحتهم، والانسحاب منها تحت ضغط هجماتهم. فقد حاصر البدو بمركز اطسا بالفيوم ديوان المركز وطالبوا رجال البوليس بتسليم أسلحتهم وخيولهم، ولما رفضوا تقاتلوا معهم، وفى ٢٢ مارس ١٩١٩م هاجم عدد كبير من السكان والبدو القادمين من الفيوم مركز الوسطى... وجردوا رجال البوليس من سلاحهم واستولوا عليه، «وفى ١٨ مارس قام البدو فى كوم حمادة بالبحيرة بهجوم عنيف على المركز»، «وفى مدينة إيتاى

البارود بالبحيرة، حاصر البدو المدينة حتى سقط مركز البوليس فى أيدى جموع الثائرين»، علاوة على ذلك كان البدو يقومون بالإغارة بأعداد كبيرة على الحكومة المدنية بالأرياف. وأمام تكرار هجمات البدو على مراكز البوليس والدوائر الحكومية المدنية بالمراكز وبخاصة النائية، اتجهت الحكومة عندئذ إلى نقل الموظفين إلى عواصم المديرية لتأمينهم، ففى مديرية الفيوم عندما تصاعدت هجمات البدو على مراكز البوليس والمقار الحكومية بأنحاء المديرية، لجأ موظفو مراكز المديرية إلى مدينة الفيوم ليكونوا بمأمن من هجمات البدو.

وكانت مهاجمة البدو لمراكز البوليس والاستيلاء على أسلحتها وراء تحول تظاهراتهم أثناء الثورة إلى مواجهات مسلحة مع القوات البريطانية، أوقعت قتلى كثر فى الجانبين، ففى ١٥ مارس ١٩١٩م حدث قتال فى بنى سويف فى جنوب الوسطى بين البدو وفصيلة صغيرة من الجنود الهنود الذين أرسلوا من القاهرة للمحافظة على النظام، وأصيب فى تلك المواجهات، قائد الفصيلة البريطانى بجراح بالغة، وفى أسبوط «اندلعت معارك شديدة بين الحامية المحلية ورجال البدو وغيرهم من الثائرين فى الفترة من ٢٣ و ٢٥ مارس ١٩١٩م، مما أدى إلى انتشار أعمال عنف ونهب وحرق طالت المبانى الحكومية، ومخازن للمواد الغذائية». وفى «١٩ مارس ١٩١٩م حدثت بمدينة الفيوم مواجهة بين القوات البريطانية والبدو، قتل وجرح فيها نحو أربعمائة شخص معظمهم من البدو».

ولعل العنف الذى صاحب المظاهرات التى شارك فيها البدو كان وراء إصدار سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر «إنذرات للبدو - ٢٢ مارس ١٩١٩م - بالبقاء فى خيامهم» و«الالتزام بالهدوء والتوقف عن إطلاق النار على الجنود البريطانيين، حتى لا تضطر قواتهم لاستخدام وسائل تؤدى إلى إزهاق أرواح كثير من الأبرياء. فقد وجه القائد العام للقوات البريطانية فى مصر - الجنرال واطسون - إنذارا إلى أهالى الفيوم والوجه القبلى جاء فيه إنه «فى الأيام الأخيرة أطلق البدو النار على الجنود البريطانيين وقتلوا بعضهم، فإذا أطلق البدو النار على الجنود البريطانيين مرة أخرى، اتخذت فى الحال وسائل مشددة قاهرة لا بد أن تفضى إلى ضياع أرواح كثير من الأبرياء وهذا آخر إنذار».

كذلك درج البدو أثناء الثورة على إتلاف المحاصيل الزراعية فى مختلف المناطق، من خلال الاعتداء على عذب وممتلكات وأعيان البلاد ممن لم يمدوا يد العون للثوار، أو ناهضوا الثورة. كما استهدفوا أشغال الرى، حتى إن المندوب السامى البريطانى فى مصر

عندئذ خشى أن تكون قد دمرت. هذا علاوة على قطع خطوط الهاتف بين مدن الأقاليم وبعضها البعض.

وكانت مشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م وراء تصاعد الأحداث بالمناطق التى كان للبدو فيها حضور ثورى قوى، كالفيوم والبحيرة، والإسكندرية، وغيرهم من المدن المصرية. وكانت الفيوم من أكثر المناطق سخونة فى الثورة بعد أن درج بدوها على الزحف على مراكزها وقراها، وبخاصة النائية منها، وراحوا يستهدفون مراكز البوليس ورجالها، الذين أجبروهم على الرحيل، والقبول بالانتقال إلى مدينة الفيوم، بحثا عن الأمان. كذلك هاجم بدو الفيوم وسائل المواصلات والمباني الحكومية، فى الوقت الذى نقلوا فيه نشاطهم الثورى إلى المناطق الأخرى المحيطة بالفيوم، وتحديداً بنى سويف، التى كانت الحالة بها فى بعض الأوقات تبدو شديدة الحرج بسبب وجود عدد كبير من رجال البدو فى المناطق المجاورة لها.

ومع استمرار تزايد أعداد البدو فى قرى كوم حماده، والدلنجات، وحوش عيسى وأبو المطامير فى غرب البحيرة، تحولت البحيرة إلى واحدة من أكثر مناطق ثورة ١٩١٩م سخونة، حتى إن أحد رجال الاحتلال البريطانى رأى أنها تعيش ثورة سافرة للبدو، شهدت إبانها مراكزها أعمال شغب، وإحراق محطات السكك الحديدية، وإتلاف معظم الطرق الزراعية، وحصار المدن كإيتاى البارود، وكذلك حصار مراكز البوليس حتى سقوطها فى أيديهم، وبلغت ثورة البدو بالبحيرة حدا دفع سلطات الاحتلال لإرسال قوات كبيرة من الإسكندرية إلى دمنهور لمواجهة الموقف الخطير الذى نجم عن ثورة البدو فيها.

وكما نقل البدو الذين تسللوا إلى الفيوم نشاطهم إلى المناطق المجاورة للفيوم كبنى سويف، فقد قام البدو الذين تسللوا إلى البحيرة بنقل نشاطهم إلى مدينة الإسكندرية، التى قاموا باعتداءات عليها، لاسيما بعد أن بدأت تنطلق منها قوات للاحتلال لمواجهة الموقف الخطير فى دمنهور الناجم عن ثورتهم بالبحيرة.

كذلك امتدت مشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م إلى الشرقية والدقهلية والغربية، حتى أصبحت الحالة بالمراكز المتطرفة فى شمال الشرقية والدقهلية والغربية فى دلتا مصر غير مرضية، فى الوقت الذى أدت فيه مشاركة البدو فى أحداث الثورة بصعيد مصر إلى توتر الأحوال فى المنيا وأسيوط، وجرجا، وقنا، وأسوان.

ولعل شدة الموقف في جنوب مصر بسبب تحركات البدو وتحديدًا في أسيوط، كان وراء اتجاه سلطات الاحتلال إلى تحويل أسيوط إلى مركز لقيادة القوات البريطانية في الوجه القبلي، حتى هدأت الأحداث بها، فتم نقل مركز القيادة إلى سوهاج ثم أسوان. ومشاركة البدو في ثورة ١٩١٩م بفاعلية ليست في حاجة لأن نبحت لها عن أسباب خاصة، كتلك التي كان يسعى رجال الاحتلال لتصديرها للمجتمع المصري في محاولة لعزلهم، وإخراجهم من الثورة، إذا ما نجحوا في تشويه تحركات البدو فيها، وتشكيك المجتمعات المستقرة بكل مكوناتها فيهم.

لهذا يمكننا القول بأن الأسباب التي دفعت المصريين للانخراط في ثورة ١٩١٩م هي نفسها التي دفعت البدو للمشاركة في الثورة بكل المناطق المستقرة بالمدن والقرى التي تقع على أطراف الصحراء، والتي مكنتهم كثرتهم من نقل احتجاجاتهم إليها.

وبالطبع هذه المشاركة التي أزعجت سلطات الاحتلال البريطاني في مصر، مردها أن البدو المصريين لم يكونوا يوماً بمعزل عن المجتمع وهمومه، للارتباط التاريخي الواضح بينهم كجماعات وأطراف، وبين المناطق الحضرية والزراعية. هذا الارتباط يعود إلى استمرار اندماج جماعات من البادية في المجتمع المستقر بريفه وحضره، والقبول بالجمع بين حياة الترحال والاستقرار، أو التضحية بحياة الترحال لحساب الزراعة والاستقرار، وقد جاء هذا الاندماج - أحياناً - في إطار سياسة لتوطين البدو، أخذت شكلاً واضحاً في العصر الحديث، ولاسيما في القرن التاسع عشر، مما أدى إلى ظهور عائلات مستقرة امتلكت مساحات ضخمة من الأراضي الزراعية، حققت لها وزناً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً في المجتمع المصري في العصر الحديث، منها الشريعي، وأباطة، والسعدى، والباسل وغيرها. وبالطبع كان استقرار هذه العائلات وارتباط مصالحها الجديدة بالمجتمع في الوقت الذي كانت تحتفظ فيه بعلاقات البداوة، جعل البدو دوماً على مقربة مما كان يحدث بالمجتمع المصري. لهذا لا نستغرب أن يكون للبدو دور في أحداث الثورة العربية، وبعد ذلك ثورة ١٩١٩م، التي كان حمد الباسل أحد أهم رموز المجتمع المصري والبادية المصرية فيها.

و حمد الباسل (١٨٧١م - ١٩٤٠م) الذي نشأ نشأة بدوية، ينتمي إلى قبيلة الرماح بالفيوم، والتي عين عمدة لها خلفاً لوالده محمود الباسل، ثم تخلى عن منصب العمدة لأخيه عبد الستار، بعد أن جذبته السياسة، وراح يستقر بالعاصمة، ليكون على مقربة من

صالوناتها، وفي عام ١٩١١م عين في مجلس مديرية الفيوم، ثم انتخب عضواً في الجمعية التشريعية قبيل الحرب العالمية الأولى، وعندما تأسس الوفد المصري في أعقاب الحرب اختير وكيلاً له.

وكان نشاط الباسل السياسي - كغيره من السياسيين المصريين - إبان الحرب العالمية الأولى، وراء اتجاه سلطات الاحتلال البريطاني في مصر لوضعه تحت المراقبة، بسبب عطفه وتأمره مع السنوسى.

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى شارك حمد الباسل في الحركة الوطنية وساند مجموعة الوفد منذ البداية، فكان ممن وقعوا على النداء الذى وجه إلى ممثلى الدول الأجنبية في مصر فى مطلع ديسمبر ١٩١٨م، احتجاجاً على الخطة التى اتخذت لمنع سفر وفد يمثل المصريين بمؤتمر الصلح «واحتجاجاً على كل قرار يتخذ بشأن مستقبل مصر بدون أخذ رأى الأمة المصرية فيه».

وكان الباسل من أكثر أعضاء الوفد المصرى جرأة فى التحرك عندئذ حتى إنه تحمل مسئولية الدعوة لعقد اجتماع للوفد بمنزله - بشارع الداخلية تجاه بيت الأمة - فى ١٣ يناير ١٩١٩م يعد الأول من نوعه، لأنه أنهى مرحلة من تاريخ الوفد كانت أعماله تعلن للأمة بطرق غير مباشرة، وجاء الاجتماع ليعطى الوفد فرصة لأن يعلن عن نفسه صراحة وبشكل مباشر، أدى إلى ازدياد التقاف الناس حوله وازدياد ثقتهم به، فى الوقت الذى أدى فيه إلى ازدياد الروح المعنوية للأمة، وازدياد معرفة الأجانب فى مصر بالحركة الوطنية، وأغراضها، ووسائلها حتى يطمئنون إليها. وقد دعا الباسل إلى هذا الاجتماع نفراً كبيراً من أعضاء الجمعية التشريعية، والهيئات النيابية الأخرى، والعظماء وكبار ذوى الآراء، وفى هذا الاجتماع ألقى سعد زغلول خطبة هى أول خطبة سياسية له بعد تأليف الوفد، والتي شكر فيها حمد الباسل على أن هياً له هذه الفرصة.

ولعل نشاط حمد الباسل جعله محل اهتمام رجال الاحتلال، الذين اعتبروه من المحرضين، والمهيجين السياسيين، وأحد زعماء الإثارة الوطنية من حملة الباشاوية - سعد زغلول، إسماعيل صدقى، محمد محمود، حمد الباسل -، والذين تقرر إبعادهم خارج البلاد فى ٨ مارس ١٩١٩م.

وكما كان إلقاء القبض على الباشاوات الأربع الشرارة التى أشعلت مظاهرات الطلاب، وفجرت أحداث ثورة ١٩١٩م، بالعاصمة، فقد كان ذات الحدث وراء تحرك البدو للمشاركة

فى الثورة؁ باعتقال حمد الباسل رمز البادية؁ والرئيس الروحى لجماعات الأعراب فى مصر؁ والذى تمتع بشعبىة عرىضة لىس بىن أفراد قبىلة الرماح بالفىوم؁ بل بىن جمىع أعراب المنطقه؁ الذىن دانوا له بالولاء والطاعة؁ وإن كانت مشاركه البدو فى الثورة قد تأخرت بعض الشىء؁ بعد أن انتشرت الحالة الثورىة بكل أنحاء مصر.

كذلك ارتبطت مشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م - وبشكل يعكس تحركهم المنظم فى إطار الجماعة الوطنىة - بتأثرهم بالإجراءات التى اتخذتها سلطات الاحتلال لتدبىر المواد الغذائىة والأمتعة والمؤون والعتاد؁ وحتى الأعلاف التى كانت تخدم المجهود الحربى لبرىطانيا فى مصر والمنطقه.؁ والتى انتشرت مراكز تجمىعها بأثناء مصر؁ حتى إن أسىوط أثناء ثورة ١٩١٩م كانت بها أهرام هائلة من التبن مكدسة لحساب السلطه العسكرىة؁ فى انتظار ضغطها وكبسها فى مكبس أنشىء خصىصا لذلك؁ لتحوىلها إلى قوالب مضغوطة للوقود.

وبقدر ما أثار استىلاء سلطات الاحتلال على أعلاف الفلاحىن لحساب مجهودها الحربى؁ قد أثار البدو الذىن كان بعضهم ىنتقل سنوىا إلى مناطق الأراضى الخصبة فى مواسم الجفاف لرعى أغنامهم وابلهم وماعزهم على بقايا الحصاد الذى كانوا ىشترونه من الفلاحىن؁ والذى تأثر بشح الأعلاف إبان الحرب بسبب سىاسة السلطات البرىطانىة فى مصر.

كذلك دفع الارتفاع فى أسعار السلع أثناء الحرب البدو للمشاركة فى الثورة؁ بعد أن أثر هذا الارتفاع فى قدرة معظم البدو على الوفاء باحتىاجاتهم المحدودة من الملابس والتمر والدبس والقمح.

وكان استنكار البدو لأسالىب جمع الدواب؁ وأعداد كبرىة من المصرىين - بالخطف من الطرق والحقول والمنازل - للعمل بفرق العمل والنقل وراء امتعاضهم من الاحتلال ورموزه من رجال السلطه المحلىة بالمدن؁ والذىن كانوا لا ىجدون غضاضة فى الاتفاق على محاصره قرى وجمع خىرة أبنائها؁ ونقلهم إلى ساحات القتال بشكل قسرى؁ بما فى ذلك قرى الأطراف التى استقر بها البدو؁ وقد أشار أحد رجال الاحتلال فى مصر لأثر هذه السىاسة فى نفوس المصرىين ممن جندوا بفرق العمل والنقل؁ والذىن بلغوا ٥٠٠ ألف متطوع؁ سىطر علىهم إحساس بالظلم والاستنكار؁ والذى وجد بدون شك طرىقه للتنفىس والإعراب عنه فى حملة من الدمار العنىف بىن الناس.

والملاحظ أن أداء البدو فى ثورة ١٩١٩م يعكس حالة المجتمع المصرى فى الثورة بكل مستوياته، حيث مثلت البادية فى قيادة الثورة بمستوياتها الخارجى والداخلى، حيث كان حمد الباسل أحد من ألقى القبض عليهم من الأربعة الذين تم نفيهم إلى مالطة، وسافر ضمن من سافروا إلى باريس بعد أن تقرر الإفراج عنهم، وسمح للمصريين بالسفر لعرض قضيتهم على مؤتمر الصلح، وظل بالخارج يسعى مع غيره من أعضاء الوفد بحثًا عن وسيلة لإنقاذ المسألة المصرية، حتى اختلف مع سعد زغلول، وقرر العودة إلى مصر مع نفر من أعضاء الوفد. وفى الداخل كان عبد الستار الباسل يعمل على الأرض مع من كانوا يعملون من الساسة بالداخل، وإن كان قد مثل التيار المعتدل على الساحة المصرية عندئذ، وتجلت هذا فى توقيعه فى ٢٤ مارس ١٩١٩م على «النداء الشهير إلى الأمة، والذى كان الموقعون عليه يدعونها إلى الإخلاء والهدوء والسكينة... وتجنب أى اعتداء وأن لا يخرج أحد فى أعماله عن حدود القوانين حتى لا يسد الطريق فى وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة، وأن يلتزم الجميع فى تصرفاته بالحكمة.

وبينما كان آل الباسل يمثلون البدو فى قيادة الثورة، سطر البدو بالأقاليم المصرية المختلفة مع غيرهم من أهل القرى والمدن صفحة وطنية مشرفة فى الثورة، لأن تظاهرات البدو ما كان لها أن تربك سلطات الاحتلال ما لم تتوفر للبدو الحضانة بالمناطق التى قرروا خوض المواجهة فيها مع سلطات الاحتلال، فى الوقت الذى كانت المناطق التى شارك فيها البدو بالثورة من أكثر المناطق سخونة وعنفا، بعد أن درج البدو على استخدام السلاح فى مواجهة قوات الاحتلال.



مصادر ومراجع الدراسة ومراجعتها

- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية، ج ٢، القاهرة ١٩٢٦م.
- حسن أحمد يوسف نصار: قبائل البدو فى مصر ١٨٤٨م – ١٩٥٢م، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس ١٩٨٧م.
- صلاح الراوى: الشعر البدوى فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- عبد الرحمن الرافعى: ثورة ١٩١٩م تاريخ مصر القومى من ١٩١٤م إلى ١٩٢١م، ج ١، ط ٣، مؤسسة دار الشعب القاهرة ١٩٦٨م.
- محمد على علوبة: ذكريات اجتماعية وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م.
- عبد الرحمن فهمى: مذكرات عبد الرحمن فهمى «يوميات مصر السياسية» ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م.
- ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩م، مؤسسة الأهرام، القاهرة ١٩٦٩م.
- صحيفة الأخبار مارس ١٩١٩م – فبراير ١٩٢٢م.
- صحيفة المقطم مارس ١٩١٩م – فبراير ١٩٢٢م.

□□□